اللّغة العربية ومستقبلها

الأستاذ : يوسف مقران

إن التطرق لموضوع اللّغة العربية ومستقبلها يجعل الباحث أمام خضم من التساؤلات والفرضيات، قليلاً ما تفضي به إلى نتائج وحقائق مقنعة نظراً للواقع الراهن الذي يحيط بهذه اللّغة الشرفة.

صحيح أن اللّغة العربية لغة القرآن الكريم، وبالتالي ما علينا إلا أن نأمن شرّ اندثارها ما دامت لغة الكتاب الني حفظه الله تعالى من التحريف والتزييف. غير أنّ المحاور التي تفيد بها أنفسنا تطمح إلى توسيع مجال الموضوع والتفكير في مستقبل هذه اللّغة. بمعزل عن العناصر الروحية كالدين والقومية. بل لا نمس حقيقة انتشارها الكثيف في أقطار عديدة، لكن لن نقصي من بحثنا هذا معالجة بعض الأسرار التي كانت وراء تفوق العربية (لهجة قريش) على مثيلاتها من اللهجات في عصر التدوين ثم نعرج إلى تناول مدى قدرتها على نقل العلوم والمعارف من اللغات الأجنبية آنذاك. وكيف تمكنت من منافستها بما أنتجته من الفكر. غير أننا نركز جهودنا على دراسة طبيعة اللّغة العربية وإمكاناتها على رفع التحديات التي تواجهها وهي في طريقها إلى المستقبل وأي مستقبل يكون؟

لهجة قريش تتحول إلى لغة مشتركة: وصف اللسانيون القدماء من أمثال ابن جني اللّغة بأنّها كائن حي. وازداد هذا المفهوم وضوحاً حينما أثبت المحدثون الحقيقة نفسها؛ إذ عكفوا على الدراسات المقارنة بين اللغات فلاحظوا ظاهرة تع بعضها عن الأخرى وكيف يجثم الأصل أو يبقى دون الاستعمال إلى غاية إحيائه من جديد إن أمكن ذلك.

فمن خلال هذه النظرية اللغوية نتبيّن الصراع الذي خرجت منه لهجة قريش ظافرة فحملت الشعر الجاهلي معظمه بكل خصائصه

المتميزة؛ والذي يعن سجل تاريخ العرب وديوان مفاخرهم. ولولا هذه اللّغة المحكمة وطبيعتها المرنة وطواعيتها وانسياقها لما استطاع العرب أن يرسموا ملامح حياتهم ويخلدوا بطولات روادهم. فاللّغة العربية ساهمت بكثير في إيجاد الإنسان العربي القديم؛ إذ نفست عن وجدانه ومكنته من التوغل في عالم الجمال الذي يغلب عليه الخيال الناضج والوا سع، ومع التصوير الدقيق والباع لتفاصيل حياتهم الفردية والاجتماعية، وذلك بألفاظ عذبة ساعدت على تطوير العقل العربي، وأتاحت له فرص التشخيص المبدع ووفرت له قوالب وأنماط لغوية حافظت على السمات الحقيقية لتفكيره. وإذا عدنا إلى سلامة اللّغة العربية من مستوحش اللفظ لاعترفنا لها بمدى انطباعها في كيان الإنسان العربي القديم الذي حرص على حسن تعريب الدخيل وتهذيبه وتقريب ا لغريب أو لبعاده، والكناية من المستقبح من العاني، والتصرف في الكلام المؤثر والماء ثور باختيار صريح العبارة وبليغها وبترك الغامض والمعقد والمبتذل منها والعناية بحفظ جميل القول وأقربه إلى التناول وأيسره تداولا، وتذوق جيده واستساغة أحلاه.

هذه هي بعض عوامل انتقاء العرب لهذه اللّغة ليتنافسوا في مجالاتها ويعتد بها في المنتديات الأدبية التي كانت تقام في أسواق خاصة كسوق عكاظ وغيره حتى انتشرت في أوساطهم. كما على ولادة هذه اللّغة رافقتها مداومة قريش رحلتي الشتاء والصيف تجاه اليمن والشام، وحسن استقبال وضيافة التجار الحجيج الذين يقصدون مكة (أم القرى) مما فتح لها ميداناً خصباً من التأثير والتأثر.

نستخلص مما سبق أنّ اللّغة العربية الفصحى المنطوية على طاقة لفظية ودلالية كامنة والتي عبر بها القرآن الكريم عن الكون والحياة والدين كفيلة بأن تُسخر عبقريتها في سبيل استيعاب المفاهيم المستحدثة لتتجاوز عالم الاستهلاك وتدخل عالم الإنتاج الفكري.

شهادة التاريخ على قدرة اللّغة العربية في نقل العلوم: عرفت الساحة الفكرية العربية انطلاقاً من أواخر القرن التاسع عشر أعلاماً

ساهموا في اللغويات بما أنتجوه من الدراسات القيمة التي أقاموها على التراث العربي. وقد نحكم على هذه الدراسات بكونها لا تتناول علماً ذا موضوعات خاصة بميدان معين أو أنّها تفتقر إلى منهج علمي سليم، إلا أنّها تبقى ذات أهمية في تحسيس العربي بضرورة القيام لإحياء لغته. ومن أمثال هؤلاء نجد أحمد فارس الشدياق والطراز يوسف داود مطران السريان[1] إذ أجرى هذا الأخير في كتابه (التمرنة في الأصول النحوية) مقارنة واسعة بين اللّغة العربية والسريانية والعبرية، وفيها يقول: إن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي يتكلم بها الساميون، وأنّها أكملهن وأجمعهن لما فيها من محاسن، ولذلك تمكنت من اكتساح السريانية والعبرانية وأبادتهما منن أجيال واستولت على جميع بلادهما وردّ ذلك التفوق إلى عدة عوامل أهمها غناها واتساع ألفاظها أصلا وفرعا واشتقاقا[2] .

حركية اللّغة العربية وتحديات العصر: إن أكبر عقبة تحول دون تطور اللّغة العربية الفصحى هي أقها لغة تعيش في الكتب أكثر مما تعيش في الأسواق والبيوت والشوارع وأنّها تعتمد عوامل مصنوعة في عملية إنمائها[3] ولا تستند إلى خصائصها الطبيعية باعتبارها ترجمان الحياة الدارجة، مما أدى بالعامية تستقطب المتكلمين وتأخذ مكان الفصحى بالرغم من كمال هذه الأخيرة من حيث النظام وكونها مهذبة لم يشفع لها لدى المتكلمين. ولما شعر الرأي العام المثقف بخطورة هذه المعضلة التي تهدد مستقبل اللّغة العربية الفصيحة ومستقبل الأداة الصالحة لنقل الحضارة الحديثة أخذت بعض

---

[1]- أنور ا لجندي، ا للغة سلسلة نحو ثقافة بانية. ا لجزائر: منشورات مكتبة الطلبة لجامعة قسنطينة 1985م، ص 6-7.

[2]- أنور الجندي، اللّغة، ص 7.

[3]- محمود تيمور، مشكلات اللّغة العربية، ط1. بيروت: المطبعة النموذجية العلمية الجديدة

المؤسسات العلمية المتخصصة -بما فيها المجامع اللغوية العربية- على عاتقها أمر استطوار[1] اللّغة العربية وترقيتها.

مفهوم عملية استطوار اللّغة العربية : ليس مفهوم الاستطوار هو حمل اللّغة العربية الفصحى على التطور بتقريبها من العامية. الشيء الذي سيؤدي بها إلى التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللّغة خلال أكثر من خمسة عشر قرنا وتبلبل الألسنة وتوسيع رقعة الاختلاف بين الأفكار العربية. ثم تصبح عربية الغد شيئاً يختلف عن عربية القرن الأول الهجري، وتصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربي والإسلامي كله متعذرة إلا بالنسبة للمتخصصين من دراسي الآثار ومفسري الطلاسم[2]. كما أن عملية الاستطوار لا تعني أبد؛ فتح المجال أمام الازدواجية أو الازدواجيات اللغوية التي تمكن أكثر اللغات الأجنبية من ولوج هذه اللّغة ولكن مفهوم الاستطوار هو حمل هذه اللّغة على التطور والتجديد بالاعتماد على إمكاناتها وخصائصها والتركيز على وسائل مثل: تطويع الدلالات والتوسع المجازي والتوليد والاشتقاق والتداعي والنحت والإلحاق والتحوير.الوسائل اللغوية لترقية اللّغة العربية: يمكن إجمال أهم الوسائل اللغوية التي اعتمدتها المؤسسات العلمية لاستطوار اللّغة العربية الفصيحة فيما يأتى:

- تزويد اللّغة: إن المدنية العصرية الحضرية من العلوم والفنون والصناعة تفرض على مجتمعنا ألفاظاً من إنتاج لغات أجنبية، فهل نزول بها اللّغة العربية أم ندعها تفتقر إلى ما يعبر به الناطقون بها عن تلك الأدوات والعقاقير وصنوف المطاعم والمشارب وأوانيها؟ بالتأكيد لا بدّ من تزويد اللّغة بهذه الضرورات الملحة من أجل ترقيتها ومسايرتها للجديد بالاعتماد على :

---

[1]- صالح بلعيد، في قضايا فقه اللّغة العربية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 994ا المصطلح ورد في الغلاف الأخير.

[2]- أنور الجندي، اللّغة، ص 28.

- التعريب: لقد ميّز الدكتور إبراهيم ا لسامرائي بين التعريب والترجمة عملا بما جرى عليه المتقدمون باعتبار المعرب كل دخيل جرى على أبنية العربية، والمترجم كل معنى أدخل في العربية[1]. وقد استعان العرب بالتعريب قصد احتكاكهم بغيرهم من الشعوب. خصوصا إثر انتشار الفتوحات الإسلامية واعتناق الإسلام من قبل الأعاجم مما جعل العرب يتأثرون بلغات غيرهم ويؤثر عليها. الأمر الذي حدث بين العربية والفارسية. غير أن العرب احتاطوا. فعوض أن يذوب لسانهم في صيغ وأنماط لغوية جديدة وغريبة عنهم حدث العكس؟ بحيث أخضعوا تلك المفردات الدخيلة إلى أبنية اللّغة العربية الغنية بصيغها وأساليبها. فاتّسعت بذلك مجالات الكلام العربي مما دفع بابن جني إلى القول بأن ما قيس على كلام العرب فهم من كلامهم.

ونظراً لأهمية عملية التعريب في استطوار اللّغة العربية عند كثير من المثقفين والمتخصصين في مجالات اللّغة العربية إلى القيام بدراسات حول هذه القضية لرصد أبعادها وتقويم مسارها، بل عقدت مؤتمرات خصيصا لهذه المسألة نذكر منها :

- المؤتمر الأول عام 953ام في الإسكندرية.
- المؤتمر الثاني عام 955ام في القاهرة.
- المؤتمر الثالث عام 957ام في بيروت.
- المؤتمر الرابع عام 1960 م في القاهرة.

وغيرها من المؤتمرات المحلية والعربية والمجمعية التي تدعو إلى تجاوز ترديد الشعارات والنهوض بعملية التعريب وفق منهجية مسطرة وفي إطار شروع متكامل.

---

[1]- إبراهيم السامرائي, العربية تواجه العصر، سلسلة الموسوعة الصغيرة 105بغداد : 982ا, منشورات دار الجاحظ لنشر. ص 110.

الترجمة: لقد انتشر فن الترجمة في الثقافة العربية منن أوائل المدن الهجرية وتكثّف نشاطه في العصر العباسي خصوصا بعد تأسيس بيت الحكمة، الحكمة أنّ لتلك الترجمة عيوباً؛ حيث أقحمت الكثير من الدخيل في اللغة العربية، وود وجدنا ذلك كثيراً في كتب ابن سينا ومترجمي كتب أرسطو. وعلى ذلك الأساس بادرت المؤسسات العلمية إلي تبقي الترجمة وسيلة لاستطوار اللغة العربية وفق منهجية مدروسة مطّلعة على عيوب الترجمة القديمة لكي تتفادي الوقوع فيها كما اعتمدت اللسانيات الحديثة وسيلتها في ذلك، وبذلك أكدت أن الترجمة سبيل التطور وطريقة من طرائق وضع المصطلح العلمي.

- مشكلة المصطلح العلمي: يعرف الكل أنّ اللّغة تقاس بمدى تمكنها من نقل المفاهيم العلمية الدقيقة والتعبير عنها بكل وضوح ودون أي تعقيد أو ضبابية، وذلك وفق طبيعتها وخصائصها وطرقها واللّغة العربية قد غزتها المصطلحات العلمية الخاصة بغيرها من اللغات الأجنبية بدعوى عالمية العلم والمعرفة، وبالتالي ضرورة نقل المصطلح بحروفه الأصلية وبكل حذافيره، غير أنّ التخصصين رأوا أن يترجم المصطلح بمعناه إذا أمكن، أو تعريبه أو الاستعانة بالتوليد الدلالي وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات بين المجمعيين في هذا المجال، إلا أنّه وقع الاتفاق على ضرورة تحري الدقة في وضع المصطلح، والعمل على توحيده.

التوليد الدلالي: يعتبر التوليد الدلالي إحدى الوسائل المعتمدة منذ أقدم عصور اللّغة العربيّة من أجل تطويرها، ويعد كل من القياس والاشتقاق من المباحث التي خاض فيها الملف في البحث، ونظراً إلى حاجة العصر إلى المصطلحات اعتمد المجمع العلمي العربي وسيلة التوليد الدلالي لإثراء اللّغة العربية، فأباح مثلاً الاشتقاق من أسماء الأعيان، واستغل بذلك الاشتقاق بالمقارنة مع المجاز الذي كثيراُ ما يؤدي إلى الغموض أو النحت الذي لا تقبله اللّغة العربيّة سهولة. لكن هذا لا يعني أنّ الباحثين قد أهملوا كلاً من المجاز والنحت، فقد انفرد

على الجارم ت949م بمقالاته اللغوية في المجاز اللغوي، وذلك لحرصه واهتمامه بهذه الطريقة في التوليد الدلالي لتوسيع اللّغة.

- تيسير النحو: إنّ اعتبار النحو مشكلة خطأ ارتكبه دعاة العامية، إذ يعتبر النحو من مقومات اللّغة وأصولها، والتخلي عنه معناه تهديم ركن أساسي في بنية اللّغة غير أنّ المشكل الحقيقي في النحو يعود إلى طريقة الدارسين في تناوله وتعليمه، مما جعله علما معقداً كثير الفصول والأبواب، شقّ به المتقدمون والمتأخرون، وسادته مناهج أبعد ما تكون من شيء ندعوه علم اللّغة؛ وذلك ما يلاحظ في مسألة العلة والعامل "ومعنى ذلك أنّ الأعراب في آخر الكلمة عندهم أثر يجلبه العامل، فكأن ذلك هو النتيجة التي تعقب السبب ألا نرى أن الأولاد الشداة في عصورنا مضطرون أن يقولوا[1] في قوله (يكتب زيد) أنّ الفعل (يكتب) مرفوع، ولم يكتفوا بذلك، بل يقولون (لتجرده من الناصب والجازم). إنّ مسألة التجرّد هذه لتشعر الدارس أنّ الوضع في النحو قد ذهب بعيداً في مسألة العامل والعلة حتى أحال النحو إلى شيء يبتعد كل الإبتعاد عن كونه علما لغويا. وبسبب هذا التغريب في أسلوب ١لدرس النحو العربي علماً مهمته البحث في العلل والعوامل [1](7).

ولكن لأسف إذا حولنا نظرنا إلى عصرنا نجد التغريب يسوده. مشتملاً على رقعة فسيحة من الثقافة العربية بما فيها النحو. إذ مسّ طرائق التعبير مما يدخل في باب الأساليب، ويعلق إبراهيم السامرائي على هذه الظاهرة قائلا" ومن الطبيعي أن يكون في هذه العربية هذا اللون الجديد الذي يتناول أبنيتها كما يتناول أصواتها. وقد يتجاوز هذا القدر فيؤثر في طبيعتها وقد يحدث أكثر من ذلك من حيث قبول بعض الطرائق الغريبة في إطلاق المصطلح وبناء الجملة[2] (8) .

---

[1]- إبراهيم ا لسامرائي. العربية تواجه العصر. ص 35-36.

[2]- إبراهيم ا لسامرائي. العربية تواجه العصر. ص 37.

فمشكلة النحو العربي من هذا المنظور تكمن أساسا في تعدد النظريات اللغوية المتضاربة أحياناً والعقدة أحياناً أخرى. كما نجدها تطرح على مستوى المناهج المتخذة لتدريسه والموروثة في مصادرها الأصلية ومصادرها المتأخرة التي يكتنفها الإكثار من لتعليل والتأويل، والنظر الخيالي. بل أحياناً يُتلقف النحو من الحواشي ويُتلمس من شروح الألفية. ويُستظهر ولكن بجهل العربية ونحوها. ذلك أنّه إزاء فرضيات ومعميات لا سبيل إلى إدراكها والاقتناع بها.

ومن نتائج هذا ولي الدارس قد يستوعب مادة النحو فيحفظ عن ظهر قلب أبيات ألفية ابن مالك ، ويعرف شرحها، ولكنه يظل عاجزا عن كتابة شيء يسير خال من اللحن.

أثر الأدب في تطوير اللّغة العربية: كلّنا متفق على أن الأديب صاحب ثقافة وهو الرامي إلى تسخيرها في خدمة المجتمع. ويصخ أفكاره بأساليب معيّنة استمدها من اللّغة نفسها فلا يستطيع العمل خارج نطاقها فهي وسيلته، وقد تكون مادته في نفس الوقت. ولكي نحكم على أدبه بالجودة عليه أن يعرض ثمار جهوده في ثوب مستساغ من الجميع فتلك هي عملية الإبداع [1] والإبداع لا يتمّ إلا بتفجير الطاقة الكامنة في اللغة المستخدمة. ودور الأديب الذي يعتمد اللّغة العربية في عمله هو البحث عن أسرار اللّغة الصحيحة والكشف عنها أو استحداث ما يحتاج إليه من التعابير والألفاظ الموحية لأغراضه والمشيرة إلى أفكاره والقادرة على حمل مفاهيمه والتعبير عن مشاعره وتصوير ما يحيط به من الأشياء المجمدة والمظاهر المحسوسة والمتحركة والتي تنبض حياةً.

فاللّغة العربية معروفة بثراء إنتاجها الأدبي والمعرفي وقدرتها على ترجمة الآثار المنتجة بغيرها هن اللّغة الأجنبية. فما على الدول العربية إلا أن تشجع هذا الاتجاه الحميد إلى ترقيه اللّغة العربية بواسطة الإنتاج الأدبي وتعزيز القراءة والمطالعة بتكثيف نشر الكتاب

---

[1]- عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية نحو بديل في نقد الأدب. ليبيا وتونس: دار الكتاب العربي1977م.ص 120.

القيم الهادف إلى تعميم اللّغة العربية وعملية تعميم اللّغة العربية تستلزم قيام دراسات ميدانية إحصائية لوع القرّاء ودرجة ثقافتهم وطبيعة قراءاتهم واهتماماتهم في مجال الأدب لكي يتمّ اختيار الكتاب الذي يحظى بأولوية النشر هذا ولكي يكون الكاتب أو الأديب على علم بالموضوعات التي عليه أن يعالجها باللغة العربية.

أهمية في اللهجات العامية العربية: لقد عُني بدراسة اللهجات العامية العربية لتعرف على ١شتقاق الكلام ومنابت أصوله وخفايا جذوره، فجاءت كتبهم في فقه اللّغة زاخرة بالنظريات الخاصة بعلاقة الفصحى بالعامية.

أما الأهداف التي على الباحث العربي أن يتوخّاها من دراسته لهجات العامية العربية هي الكشف عن الألفاظ العامية التي حظيت بالانتشار والجري على]لألسنة نظراً لكونها ذات أصول عربية فصيحة؛ حيث ابتعدت عن هذه الأخيرة من جراء فسادها بألسنة المستعملين إياها فالبحث العلمي المجرد من الدعوة إلى العامية يقوم على أساس التطلع إلى المعرفة الهادفة إلى استرجاع تلك ١لألفاظ إلى أصولها مع محاولة الحفاظ على حياتها في المجتمع.

وإذا توفر المعجم العربي على قابل لها في الفصحى يُعمد إلى استعمالها في مقامات جديدة ومفاهيم مستحدثة والأمثلة على ذلك عديدة نكتفي بإيراد بعضاً منها:

*الطاقة/النافذة: والطاقة لغة فصيحة، وقد وردت في بعض كتابات القرن الرابع الهجري؛ فقد استخدمها بديع الزمان الهمناني في

القامة المضرية حيث قال: هذه داري كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة، أنفقت والله عليها فوق الطاقة [1]. فيمكن اعتبار هاتين اللفظتين مترادفتين على مستوى اللغة العربية الفصيحة، وبالتالي إثراء للغة باستعمال كل واحدة منها النوع معين من النافذة نظراً لحاجات العصر المتطور والذي بشهد يومياً أجهزة مستحدثة وبالتالي على اللّغة الحية والمتطورة أن تجد لها ما يقابلها ويعكس معناها أو معانيها.

* المروحة: تنطقها لدينا بفتح الميم والأفصح بالكسر عندما يراد بها الآلة كما نصّ على ذلك الحريري في (درة الغواص في أوهام الخواص) تكون الراء والواو معاً للتخفيف من ثقل النطق المفتوح فهي إذن عربية ولكنّها محرفة النطق ككل عامية في الغالب[2].

وأخيراً، فممّا سبق تحليله يُمكن التأكد من وضوح الرؤية بالنسبة لمستقبل اللّغة العربية الفصيحة إذا تمثلنا التقاط التالية:

- مواصلة اللّغة العربية المقاومة والصراع في سبيل التخلّص من الدعوات المسمومة إلى إحلال العامية محلها.
- اعتبار جمود اللّغة نتيجة الجمود الفكري والخمود الوجداني اللذين يختفيان وراء تبني الازدواجية اللغوية، وذلك على حساب بقاء وترقية اللّغة العربية.
- إصلاح الفصحى البني على وسائل لغوية ناجعة كتبسيط اللّغة وتزويدها بواسطة الترجمة والتعريب والتوليد الدلالي، وكذا تيسير نحوها وضبط كتابتها.

---

[1]- مقامات الهمذاني، ص 107. ويرى الأستاذ ابن ثاوت أنّ أصل لفظ الطاقة جاء من اللفظ الفارسي طاقجة انظر: مجلة (عودة الحق) أبريل 1969 ، ص 119 . وانظر: عبد المالك مرتاض، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، سلسلة الدراسات الكبرى. الجزائر: الشركة الوطنية لنشر ولتوزيع 1981، ص 46.

[2]- ع/ يوهان فك، العربية (دراسة في اللّغة واللهجات والأساليب)، ص 216. وانظر: عبد المالك مرتاض، العامية. الجزائرية وصلتها بالفصحى، ص 50.

- إنشاء أبحاث علمية هادفة لدراسة اللهجات العامية لإثراء الفصحى وتوسيع معجمها، والاستفادة من شدة انتشار ألفاظ عامية ذات أصول فصيحة، وهذا لربح الوقت في جعل الشارع يسمو إلى الفصحى بما ألفه من الألفاظ العامية.
- الوسائل الإعلامية لنشر الفصيح، وبث حصص إذاعية وتلفزية تعالج قضايا اللّغة، وتصحح النعوت السلبية التي أطلقت على قصور العربية عنوة.
- تشجيع التأليف والترجمة والنشر في الميادين العلمية باللغة العربية.

إنجاز منشورات تالة، الأبيار، الجزائر
الهاتف: 021.92.42.11 / 021.62.42.11
الفاكس: 021.79.62.42